المحاضرة الثالثة: شعر الصَّعاليك

أولا: الصَّعلكة والصَّعاليك

إنَّ الدَّارس لشعر الصَّعاليك يجد نفسه ملزما بأن يعرف الإطار السياسي والاجتماعي والثقافي لهذا النوع من الشـــعر، ويقف على أحوال عصـــرهم، ذلك أن الاتجاهات الأدبية المختلفة كانت تتأثر بأحوال القبائل السـياسـية والاجتماعية والثقافية، فالشـعراء الصـعاليك عاشوا في عصور ما قبل الإسلام، وعاصروا أحداث الجزيرة العربية، ومنهم من عاش فجر الإسـلام حتى أوج العصـر الأموي، وكان لهذه الأحداث المختلفة أثر في اتجاهات الشـعراء الصـعاليك النفسـية والشـعرية معا، فكانوا يلتقون مع شـعراء عصـرهم في بعض الاتجاهات الرائجة في موضوعات الشعر، ومنهجية القصيدة، وفي اللغة والمعاني.[1]

1-مفهوم شعر الصعاليك:

الصـعاليك: مفردها صـعلوك، وهو لفظ مشـتق من لفظة صـعلكة، وقد ورد هذا اللفظ في لسان العرب: الصعلوك، وقال: وهو الفقير المعدم الذي لا يملك مالا.[*]

ووردت عند الجوهري: أن الصـعلوك هو الفقير، وصـعاليك العرب هم: دؤبانها يعني: وسموا بهذا الاسم نظرا لسرعتهم الفائقة في العدو وشراستهم في الهجوم والفارة، وأطلق عليهم ذؤبان العرب أو الذؤبان تشبها لهم بالذئاب.[2]

لم تعد الصعلكة تعني الفقر والفاقة، وإنما أطلقتها العرب على الفرسان الشجعان الذين ثاروا على أوضاعهم الاجتماعية ونرى شوق ضيف أن هذه اللفظة لم تقف في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصـة، فقد أخذت تدل على ما يتجردون للغارات وقطع الطرق، ويمكن أن

---

[1] – ينظر: حرشـاوي جمال، الخصـائص الأسـلوبية في شـعر الصـعاليك (الشـنفرى أنموذجا) أطروحة مقدمة لنيل شـهادة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة أحمد بن بلة–وهران–الجزائر، 2015–2016، ص: 31.

[*] محمد جمال الدين ابن منظور: لسـان العرب، طبعة جديدة ومحققة دار صـادر، بيروت–لبنان، ط: 04، 2005م، مج: 08، مادة (صعلك).

[2] – موسوعة ويكبيديا.

نميز فيهم ثلاث مجموعات: مجموعة من الخلعاء الشـذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل: حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القيني وهو حنظلة بن جفنة.

مجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم لعار ولادتهم مثل السـليك بن الشـلكة، وتأبط شـرا، والشـنفرى، وكانوا يشـركون أمهاتهم في سـوادهم فسـموهم وأضاربهم باسم أغربة العرب.

المجموعة الثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإمار الحبشـــيات، غير أنها احترفت الصـــعلكة احترفا، وحينئذ قد تكون أفرادا مثل: عروة بن الوردا العبســي، وتكون قبيلة برمتها مثلا قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف.

ويمتازون بالشـجاعة والصـبر عند البأس وشدة المراس والمضـاء وسرعة العدو، حتى ليسـمون بالعدائيين، وحتى لتصـرب الأمثال بهم في شـدة العدو، فقال: "أعدى من السـليك"، و"أعدى من الشنفرى...".[3]

ثانيا: موضوعات شعر الصعاليك

لقد قال شـعراء الصـعاليك في كثير من الموضـوعات شـأنهم شـأن بقية الشـعراء الجاهليين، كما جعلوا الموضوعات الشعرية تطغى على موضوعات أخرى، ونظموا بكثرة في موضوع الوصف الذي احتل الصدارة.

1-موضوع الوصف:

سعى الشاعر الصعلوك سعيا فغي أكثر أشعاره وأن القصيدة على طولها كان هدفها لا يخرج عن الوصف من مشاهد الصحراء، وما فيها من نبات وحيوان، وما يتم على رمالها من طراد للحيوانات المتوحشـــة، وليس من دافع إلى هذا الوصـــف الرابع إلا حب الشـــعراء الصـعاليك للصـحراء وتآلفهم معها، وحرصـهم على نقل مشـاهدها، وكذلك وصـف غزواتهم وهجوماتهم على القوافل وسلبهم للغنائم.

[3] – شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، 375/1.

فالصعاليك كانوا يرون أنفسهم طائفة مظلومة تعاني من التشرد والنفي، فقد نشأ من بينهم شعراء قاموا بوصف حياهم، وتصوير الصعلكة[4]، لذا شعر الصعاليك بالظلم الاجتماعي المر الذي وصل إلى حد الانفجار، فخرج الشعراء الصعاليك إلى ربوع الصحراء مرغمين، مكرهين باحثين عن دفء يعوضهم ما حرموا منه في أحضان قبائلهم[5]، يقول تأبطّ شرا، يصف أحواله، ويهتف بعاذلته، التي لا تكون سوى القبيلة، لعها تخفف من وطأة نائيتها وطغيانها ولومها[6]

بل من لعذالة* حدالة** أشب*** حرق باللوم جلدي أي تحراق

يقول أهلكت مالا لو قنعت به من ثوب صنف ومن بز وأعلاق

عاذ لتلي إن بعض اللوم معنقة وهل متاع وإن أبقيته باق

إني زعيم لئن لم تتركوا عذلي أن يسأل الحي عني أهل آفاق

أن يسأل القوم عني أهل معرفة فلا يخبرهم عن ثابت لاق

سدد خلالك من مال تجمعه حتى تلاقي ما كل امرئ لاق

لتفرعن علي السن من ندم إذا تذكرت يوما بعض أخلاقي

كما صنف يوسف خليف الشعراء الصعاليك وجعلهم طبقتين:

-طبقة تمثل الجانب الإنساني يقودها عروة بن الورد

-وطبقة ثانية تمثل الحانب الشيطاني يقودها الشنفرى.[7]

---

[4] – حرشاوي جمال، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك، ص ص: 83-84.

[5] – المرجع نفسه، ص: 84.

[6] – ديوان تأبط شرا، تق: طلال حرب، دار صادر، بيروت-لبنان، ط: 01، 1996م، ص ص: 50-51.

* – العذالة: الكثير العذل.

** – الخدالة: الذي يكثر خذلان صاحبه.

*** – والأشب: المخلط المعترض، ويقصد من يعينني على هذا العذالة.

[7] – ينظر: يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط: 3، 1978، ص ص: 55-56.

ثالثا: أبرز شعراء الصعاليك

نذكر ثلاثة شعراء على سبيل المثال لا الحصر:

وهم: السليك بن السلكة، عروة بن الورد، تأبط شرا، الشنفرى.

1-السُّليك بن السُّلكة:

هو السُّليك بن عمرو بن يثربي، ينتسب إلى أمه السُّلكة التي كانت أمة سوداء وأبوه عربي قح من بني سعد بن زيد مناة بن تميم، وهو «أحد أغربة العرب وهجنائهم، وصعاليكهم ورجيلائهم»[8]، ويعد معه غراب بني عبس وخفاف بن ندبة، وقد استطاع السليك بين السلكة أن يحرر نفسه من عبودية قاتله، ومن رق هين، وذلك بفضل بسالته وشجاعته، وحسن إدراكه للأمور، وذكر ابن قتيبة أن السُّليك بن السلكة «كان له بأس ونجدة، وكان أذل الناس بالأرض، وأجودهم عدوا على رجليه، وكان لا تعلق به الخيل».[9]

كما كان السُّليك فارسا مغوارا، شجاعا، وشاعرا مجيدا، وقد استطاع بفضل شجاعته أن يعتق نفسه من رق العبودية، وإن لزمه لقب الغراب، وابن الأمة وابن السوداء، فهو من الشعراء الصعاليك البواسل يخشاه الفرسان، ويهابه الأبطال.[10]

وكان السُّليك بن السُّلكة بمسالك الصحراء وطرقها الوعرة، ومواقع المياه فيها، وأماكن دفنه للبيض المليئ بالماء، كما كان يأخذ الحذر في كل غارة يغيرها، قال ابن قتيبة: «فأصابتك [يعني السُّليك] خصاصة شديدة، فخرج على رجليه أن يصيب غرة من بعض من يمر عليه، فيذهب بإبله، حتى إذا أمسى في ليلة من ليالي الشتاء قرة مقمرة اشتمل الصماء ونام، فبينا هو كذلك جثم عليه رجل، فقال: استأسر، فرفع السُّليك رأسه فقال: إن الليل طويل، وإنك مقمر، وجعل الرجل يلهزه، ويقول: يا خبيث استأسر ثم قال له: ما شأنك؟ فقال:

---

[8] – أبو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدِّنيَوَرِي، الشعر والشعراء، تحقيق وضبط: مفيد قميحة، ومحمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط:02، 2005م، 356/1.

[9] – المرجع نفسه، 356/1.

[10] – جمال حرشاوي، الخصائص الأسلوبية في شعر الصعاليك، ص: 44.

أنا رجل فقير، خرجت لعلي أصيب شيئا، فقال: انطلق معي، فخرجا فوجدا رجلا قصته مثل قصـــتهما، فأتوا جوف مراد، وهو باليمن، فإذا فيه نعم كثير، فقال الســـليك لهما: كونا معي قريبا حتى آتي الرعاء، فاعلم لكما علم الحي أقريب هو أم بعيد؟ فإذا كانوا قريبا رجعت إليكما، وإن كانوا بعيدا قلت لكما قولا أحي به إليكما، فأغيرا على ما يليكما، فانطلق حتى أتى الرعاء، فلم يزل بهم يتسقطهم حتى أخبروا خبر الحي، فإذا هو بعيد، فقال لهم السُّليك: ألا أغنيكم؟ قالوا: بلى، فرفع عقيرته يتغنى قائلا:

يا صاحبي ألا حي بالوادي ألا أعيـــــــد وأم بيــن أدواء

أتنظرون قليلا ريث غفلتهم أم تغدو وإن فإن الريح للعادي

فلما سمعا ذلك اطردا لإبل، فذهبا بها».[11]

كما تذكر بعض الروايات مقتل الشاعر السليك بين السلكة، حيث «أنه مر في بعض غزواته ببيت من ختعم، أهله خلوق، فرآ فيهم امرأة بضـة* شـابة، فتسـنمها ومضـى، فأخبرت القوة فرعب أنس بن مدرك الخثمعي في أثره، فقتله، وطولب بديته، فقال: والله لا أديه ابن إفال**، وقال:

إني وقتلي سليكا يوم أعقله كالنور يصرب كما عاقت البقر».[12]

2-عروة بن الورد:

---

[11] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/365-366.

* – بضـة: البضَّـة المرأة الناعمة ، سمراء كانت أو بيضـاء، الرقيقة الجلد الظاهرة الدم، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة وحققة، دار صادر، بيروت– لبنان، ط:04، 2005م، مج: 02، مادة (بضض).

** – الإفال: هي صغار الإبل بنات المخاض ونحوها، مفردها: أفيل: أي لا يقدم للسليك دية ولو كانت صغيرة حتى وكانت إبل صغيرة، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة وحققة، دار صادر، بيروت– لبنان، ط:04، 2005م، مج:01، مادة(أفل).

[12] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/368.

أ-حياته: هو عروة بن الورد بن زيد، وقيل: عروة بن عمرو بن زيد العبسي، شاعر جاهلي من الصعاليك، وكان يلقب بـ "عروة الصعاليك" بقوله:[13]

لحى الله صعلوكا إذا جنّ ليله مصارفي المشاش ألفا كل محرز

يعد الغني، من دهره كل ليلة أصاب قراها من صديق مسر

ولله صعلوك، صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

يعتبر عروة بن الورد بين الشعراء العرب، أحب الشخصيات، وأكثرها جاذبية، ذاك لما اشتمل عليه شعر هذا الشاعر الجاهلي الفطري من آداب إنسانية رقيقة، وأخلاق الفارس النبيل الكريمة المعطاءة، وهذا ما جعل الخليفة الأموي "الذواق للأدب" معاوية بن أبي سفيان يقول: «لو كان لعروة ولد لأحببت أن أتزوج إليهم»، كما قال فيه الخليفة عبد الملك بن مروان يقول فيه: «ما يسرني أن أحد من العرب ممن ولدني لم يلدني، إلا عروة بن الورد، لقوله:

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد».[14]

ب-إنسانيته: إن إنسانية عروة وجوده تتمثل أفضل تمثيل في طريقة حياته ومعاملته للصعاليك الذين كثيرا ما كانوا يتذللون عليه، فيتحملهم لئلا يفسد صنيعه معهم، ويصبر عليهم أعظم الصبر، ويكظم غيظه ويعفو عنهم أعظم العفو.

وكان إذا أصاب الناس شدة قام على الفور بمساعدة المريض حتى يشفى، أو ضعيفا حتى تعود له قوته، وكان يعطي نصيبا من غنائم الغارات ولا يطمع في شيء مهما كان، ويؤثر الضعفاء على نفسه، والمؤسف أن عروة إذا أعسر وضاقت به الأمور يذهب إلى

---

[13] – ديوان عروة بن الورد أمير الصعاليك، دراسة وشرح وتحقيق: أسماء أبو بكر محمد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1418هـ-1998م، ص: 10.

[14] – ديوان عروة بن الورد ، ص: 09.

اللذين أثروا من جوده وكرمه، يطلب منهم القليل، والعون الضـــئيل، فيردونه خائبا، بخفي حنين، وهذا ما جعله يقول:[15]

ألا إن أصحاب الكنيف رأيتهم كما الناس لما أختبوا وتمولوا

ولعل شـهرته بالكرم والسماحة والعطاء المستمر جعلت الخليفة المثقف عبد الملك بن مروان الأموي يقول: «ومن زعم أن حاتما أسمح الناس، فقط ظلم عروة !!».[16]

[15] – المرجع نفسه ، ص ص: 10-11.

[16] – المرجع نفسه، ص: 12.

ج-شـاعريته: لم يكن عروة بن الورد فارسـا صـعلوكا جوادا فحسـب، وإنما كان من شـعراء العرب المحدودين، حتى أن قومه بني عبس، كانوا يأتمون بشـعره، وعبس هي قبيلة شاعر الحب والحرية عنتر بن شداد العيسى.

وشعر عروة بن الورد يتميز بالخصائص الآتية:[17]

- شعر يتميز بالطلق.
- شعر يتميز بالقبول لدى القارئ وبكاء للديار، وتشبيبا بالمحبوبة.
- ليس في شعره وقوفا مطولا للأطلال على غرار ما فعله الشعراء الجاهليون.
- يرفض السلطة والتسلط، ويرفض القهر والاستبداد.
- يرفض الجور والظلم الاجتماعي، ويرفض التفاوت بين الطبقات.
- شعره خرج بعيدا عن التقليدية إلى آفاق رحبة وإلى أغراض إنسانية سامية.
- شـعر عروة يمتلئ بجمال المعاني، والطراوة، والإيقاع العذب، والبعد عن الغريب والمستهجن.

د-وفاته: يقال أن عروة بن الورد أمير الصعاليك مات مقتولا قتله رجل من بني طهية في سنة 616م.

2-تأبّط شرّا:

هو ثابت بن جابر بن سفيان، وينتهي نسبه إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار، وأمه من بين القين، بطن من فهم، وقيل: إن أمه أمة حبشية سوداء، ورث عنها سوادها، فعد من «أغربة العرب»، مات والده وهو صـغير، فتزوجت أمه الشـاعر أبا كبير الهندلي، وهو من كبار الصـعاليك، فخرجه على شـاكلته، «وربما كان لسـواده وتعبير عشـيرته له به وبانه ابن أمة أثر في تصعلكه» فنشأ فتاكا.

---

[17] - ديوان عروة بن الورد، ص ص: 13-14، وينظر: علي حسـن جاسـم، دراسـات في الشـعر العربي القديم، بغداد-العراق، ط:01، 2011، ص: 121ومابعدها.

واشـتهر بسـرعة في العدو حتى قيل إنه: «أعدى ذي رجلين وذي سـاقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فيتغنى على نظره ســـمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله»، وتأبّط شرا لقب له.[18]

وفي تلقيبه بتأبط شرا أربعة أقوال:[19]

- قيل إنه تأبط سيفا وخرج فقيل لأمه: أين هو؟ فقالت: لا أدري، تأبط شرا وخرج.
- قيل إن أمه قالت له في زمن الكمأة: ألا ترى غلمان الحي يجتنون لأهلهم الكمأة، فيروحون لها! فقال لها: أعطيني جرابك حتى أجتني لك فيه، فأعطته جرابها فملأه لها أفاعي من أكبر ما قدر علي، وأتى به متأبطا له، فألقاه بين يديها، ففتحه فسـعين بين يديها في بيتها، فوثبت وخرجت منه، فقال لها نسـاء الحي: ماذا كان الذي تأبطه ثابت اليوم؟ قالت: تأبط شرا.
- وقيل: إنه رأى كبشـا في الصـحراء فاحتمله تحت إبطه، فجعل يبول طول الطريق عليه، فلما قرب من الحي ثقل عليه حتى لم يقله، فرمى فإذا هو الغول! فقال قوه: بم تأبطت يا ثابت؟ فأخبرهم، فقالوا: لقد تأبط شرا.
- وقيل: إنه أتى بالغول فألقاه بين يدي أمه، فســـئلت أمه عما كان متأبطا، فقالت: ذلك، فلزمه.
- وقيل: إنه أخذ سكينا تحت إبطه وخرج إلى نادي قومه فوجأ بعضـهم، فقيل: تأبط شرا، وقيل: تأبط جفير سهام، وأخذ قوسا، فقال له أمه: هذا تأبط شرا
- وقيل: إنه سمي تأبط شرا ببيت شعر قاله، وهو: [20]

تأبط شرا ثم راح أو اغتدى يؤائم غنما أو يسيف على دحل.

---

[18] – ديوان تأبط شرا، ض: 05.

[19] – المرجع نفسه، ص ص: 5-6.

[20] – المرجع نفسه ، ص: 06.

4-الشَّنفرى:

أ-حياته: هو عامر بن عمرو الأزدي من اليمن، يلقب بالشـنفرى بفتح الشـين وآخر ألف مقصـورة، ومعنى لفظ الشـنفرى على الرغم كمن أكثرهم فنشـر لفظ الشـنفرى بأنه غليظ الشـفتين، أما من كتبوا تراجم الشـعراء، فقد كادوا يجمعون على أن الشـنفرى هو لقب هذا الشاعر ومرده إلى غلظة شفته، وثانيهما إلى حدة مزاجه.

وكان الشـنفرى من أعدى عدائي العرب حتى ضـرب المثل بعدوة، فيقل: "أعدى من الشنفرى".[21]

ب-نشـأته: نشـأ الشـنفرى في بني سـلامان لا تحسـبه إلا أحدهم، حتى نازعته بين الرجل الذي كان في حجره، وكان السـلامي اتخذه ولدا، فقال لها الشـنفرى: «اغسـلي رأسـي يا أخية، فأنكرت أن يكون أخاها، ولطمته، فذهب غاضـبا حتى أتى الذي اشـتراه من فهم، فقال له: أصـدقني ممن أنا؟ قال: أنت من الأواس بن الحجر، فقال: أما إني لن أدعكم حتى أقتل منك مئة بما استبعدتموني»[22]، إذ يقال:[23]

ألا ليت شعري والتلهـــف خلــه بما ضربت كف الفتاة هجينا

ولو علمت قعوس أناب والـــدي ووالدها ظلت تفاخر دونــها

أنا ابن جياد الحجر بيتا ومنصبا وأمي بانه لو تعد فينـــــها

ج-مقتله: نقل الرواة من روايتين في مقتل الشـنفرى، فيهما أن بني سـلامان هم لذين قتلوه بعد أن قتل منهم خلقا كثيرا، وتقول الرواية الأولى إن بني سـلامان قتلوه بمسـاعدة أسـد بن جابر أحد العدائيين.

---

[21] – ديوان الشَّنفرى، عمرو بن ملك، جمعه وحققه وشرحه: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العرب، ط:02، 1417هـــ-1996م، ص ص: 09-10.

[22] – الديوان، ص: 11.

[23] – الديوان، ص: 11.

وفي الثانية أنه غزا بني سلامان فجعل يقتلهم، ويعرفون نبله بأفواقها في قتلاهم، حتى قتل منهم تســـعة وتســـعين رجلا ثم غزاهم غزوة، فنذروا به، فخرج هاربا، وخرجوا في إثره، وترصـدوا خطواته حتى قتلوه وصـلبوه، فلبث عاما أو عامين مصـلوبا، وعليه من نذرة رجل، قال: فجاء رجل منهم كان غائبا، فمر به وقد سقط، فركض رأس برجله، فدخل فيها عظم من رأسه فبغت–هاجت–علي فمات منها، فكان ذلك الرجل هو تمام المئة.[24]

رابعا: لامية العرب للشَّنفرى

لقد لقيت لامية الشـنفرى اهتماما بالغا من طرف المحققين وشـراح الشـعر، كما تعتبر من أشهر ما أبدع الشعراء العرب ومطلعها.

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل

وتعتبر لامية العرب من أشـعر اللاميات في الشـعر وأقدمها، وقد جاء في الأثر، عن عمر بن الخطـاب رضـــي الله عنـه: «علموا أولادكم لاميـة العرب، فـإنمـا تعلموهم مكـارم الأخلاق»، وقد حاول الكثير من الشـعراء معارضـتها، والنظم على نسـقها، ومن أشـهر تلك اللاميات:[25]

[24] – ديوان الشنفرى، ص: 12.

[25] – السـيد إبراهيم الرضـوي، شـرح لامية العرب، شـر وتحقق وتع: أسـماء محمد حسـن هيتو، دار الفارابي للمعارف، الشارقة–الإمارات العربية المتحدة، ط: 01، 1430هـ–2009م، ص: 15.